أركـان للدراسات والأبحاث والنشر
Arkan for Studies Research and Publishing

عندما تتحالف السياسة مع الدين: إستراتيجية روسيا الجديدة للهيمنة على الشرق الأوسط بحجة محاربة الإرهاب

إعداد
هشام قادري – إلميرا أحمدوفا

ترجمة وتقديم
عمر عبد الرازق

بين يدي الترجمة: عن الحاجة إلى المواكبة:

نحن الآن في أمسّ الحاجة إلى إعادة النظر في أفكارنا عن الواقع، ونحن في طريقنا إلى طيّ عقد كامل منذ قيام ما سمي بـ «الربيع العربي». وعقد في الألفية الجديدة هذه يعني جملةً من التغيرات والانقلابات في موازين القوى، وتوجهات العالم ونظمه الفرعية. لكن في جو من التغيرات والأحداث اليومية، التي لم تتوقف لحظة، والتي تسِم هذا العقد كذلك بتطور سرعة نقل المعلومات فيه؛ فإنه يصعب على من يعايش هذه الأحداث اليومية – لا سيما إذا أغرقته المعلومات في تفاصيلها – أن يدرك التغيرات العميقة، والتحولات البنيوية، التي طرأت على نظام العالم في القرن الواحد والعشرين، بين عقده الأول وعقده الثاني. بل نتعرض كثيرًا للخداع من قِبل الكتّاب والمحللين والسياسيين، حين يقومون بتوصيف الأحداث الراهنة بلغة العَقد الأول من القرن ومنطقِه قبل قيام الثورات وما تلاها من أحداث؛ فيكون توصيفًا للحاضر بمنطق ولغة لا تتساوق معه.

إذًا، أستهل كلامي بادعاء واضح: علينا أن نفصل بين عقدي القرن، باعتبار أن كلًّا منهما حقبة تاريخية بأفكار وواقع يختلف كثيرًا عن سابقه، يفصل بينهما حدث مفصلي هو الثورات، ليس في ذاتها ولكن في تبعاتها.

فإذا كان العقد الأول عقد النظام العالمي أحادي القطب، عقد هيمنة أمريكا، وتفشي العولمة وابتلاعها العالم، وصعود خطاب دعم حقوق الإنسان، والتحول الديموقراطي، وظهور الحركات الاجتماعية الجديدة، ونظريات التغيير السلمي والتغيير المجتمعي في المنطقة العربية، إذ هو عصر سيادة الأفكار الحداثية الغربية بامتياز[١]؛ فإن العقد الذي تلاه هو عقد تراجع القوة الأمريكية، والتحول تدريجيًّا إلى نظام متعدد الأقطاب، تبرز فيه قوى دولية كالصين وروسيا بقوة، وقوى إقليمية كتركيا، وإيران، والتحالف الإماراتي السعودي، وهي تمتلك قوة حقيقية ونفوذًا واسعًا في المنطقة، وتحولت في هذا العقد الأنظمة العربية من التبعية الخالصة إلى نوع من الشراكة، وغير العربية من التأثير إلى الفعل والقيادة.

إنه عصر تحدي الأفكار الحداثية الغربية وسيطرتها الواقعية بعدة أشكال؛ تحدي إيران للقوة الأمريكية وعقوباتها، مع تمسكها بمشاريعها الإسلامية الثورية؛ وتحدي تركيا لاحتكارات مجلس الأمن، مع تصرفاتها الأحادية في ملف الأكراد، ومؤخرًا في ليبيا وشرق المتوسط؛ وتحدي الصين للقيود التجارية الأمريكية في قلب الأسواق الأمريكية؛ وتحدي روسيا للنظام العالمي أحادي القطب.

إنها تغيرات ليس أدل عليها من الاتفاقات التركية – الإيرانية – الروسية بشأن سوريا، بداية من مقررات

---

١ نعوم تشومسكي: **النظام العالمي القديم والجديد**، ترجمة: عاطف محمد عبد الحميد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

مؤتمر أستانا، بعيدًا عن الولايات المتحدة وأوروبا ومجلس الأمن، في تأكيد صريح على أن الدول الثلاث هي صاحبة الكلمة الأولى في سوريا، وفي تأكيد أشد على حرص الدول الثلاث على تحدي النظام العالمي القديم، وإرساء عالم متعدد القوى[٢]، وتنحية هذه الدول خلافاتها التاريخية العميقة. فبين كل من روسيا القيصرية وتركيا العثمانية صراعات امتدت لقرون، وكذلك بين العثمانيين والصفويين، وبين الإيرانيين والروس. لكن بوتين وروحاني وأردوغان يدركون العدو المشترك، وقرروا تأجيل هذه الخلافات إلى أجل يكون فيه النظام العالمي ملائمًا لها. أليس هذا دليلًا واضحًا على أن أوضاع الشرق الأوسط لم تعد في يد إسرائيل وأمريكا وحدهما كما في السابق؟

هذا التحول على أرض الواقع ليس مجرد سعي دول حديثة إلى الحفاظ على مصالحها، كما يمكن تصوير الأمر، أو كما تتصوره براجماتية الفكر الغربي. لكنه يحمل في طياته عودة عالمية إلى وعي تاريخي، عودة إلى الإمبراطوريات بشكل يذكّر بأطروحات أنطونيو نيجري ومايكل هاردت عن الشكل الجديد لرأسمالية القرن الواحد والعشرين[٣]، وأطروحة صمويل هنتنجتون عن صدام الحضارات[٤]، لكن في شكل مختلف عن توقع الدور الأمريكي المهيمن في النظام العالمي.

هناك عودة عالمية للماضي القومي والوعي الحضاري التاريخي؛ ففي روسيا الجديدة ملامح العودة والحنين إلى الإمبراطورية القيصرية، وفي تركيا دعاية واسعة وتأكيد في كل مناسبة على الفخر بالماضي العثماني وإعادته، وفي إيران بدأت باكرًا عودة إلى تراث فارسي وإسلامي، واستدعاء لروابط تاريخية، وفي الصين عودة إلى ثقافتها الإمبراطورية، ونظام الحكم فيها يقترب من الحكم الصيني القديم أكثر من رؤية ماو للدولة الشيوعية. بل في أمريكا لم يتجاوز انتخاب ترامب تحت شعار «أمريكا العظيمة مجددًا» إلا رغبة في استرجاع الهوية الأمريكية الفريدة. وفي أوروبا لم يكن صعود أحزاب اليمين إلا تأكيدًا على هوية باتت مهددة. وفي فرنسا بالذات، آخر معاقل الوعي القومي المتماسك، لم تكن تحركات ماكرون الأخيرة إلا محاولة لاستنقاذ الأمة الفرنسية العلمانية من تهديدات اضمحلالها في ثقافة التعددية الثقافية، فوجّه سهامه تجاه المسلمين في فرنسا.

وبدورها تحمل العودة إلى التاريخ غير الغربي وإدراك التمايز عن الغرب تحديًا للنموذج الغربي الحداثي، ومرتكزاته: العلمانية، والديموقراطية، وحقوق الإنسان؛ وتحمل أيضًا انطلاقًا من افتراض فشل هذا النموذج بمظاهره الثلاث: الاشتراكية، والليبرالية، والفاشية، في تحقيق ما كان يعد به؛ وتحمل كذلك

---

٢ وهو ما رصده العديد من المقالات التحليلية؛ على سبيل المثال: جمال دملج: "مؤتمر أستانة وملامح التسويات المرتقبة في عالمٍ متعدّدِ الأقطاب"، **موقع لبنان ٢٤**. (https://bit.ly/2OaS4yP) تاريخ النشر: ٢٢ يناير ٢٠١٧.

٣ أنطونيو نيجري، مايكل هاردت: **الإمبراطورية، إمبراطورية العولمة الجديدة**، ترجمة: فاضل جكتر، الرياض، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢.

٤ صمويل هنتنجتون: **صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي**، ترجمة: طلعت الشايب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣.

دفعًا باتجاه تطوير نماذج متسقة مع التاريخ الخاص لكل حضارة[٥].

وقد كانت النظرة العربية المتفائلة، ترى في الثورات نقطةَ انطلاق للاستفادة من تجربة الغرب لا استنساخها، وتطويرَ تجربة حضارية، تكوّن حكمًا عادلًا، وتكفل حرية عامة وعدالة اجتماعية؛ أي نظرة تتوجه إلى المواطن وحقوقه. لكن مع انكسار هذه الحركة، لأسباب ليس هنا مقام ذكرها، لم تتوجه السلطويات في الإقليم والعالم إلى ما اعتاد عليه العرب من تبعية للنموذج الغربي، بل توجهت إلى تأكيد على السلطوية، والتوجه إلى مصالح الدولة (الإمبراطورية في المخيلة والتوجه) وليس المواطن، وفي الوقت نفسه توجهت إلى تحدي علمانية الغرب وليبراليته ونماذجه الفكرية. نعم، يمكن للسلطوية أن تكون مستقلة عن الغرب.

وإن الفيلسوف الروسي «ألكسندر دوجين» مؤسس الحركة الأوراسية، والخلفية الفكرية لمشروع بوتين لروسيا الجديدة، مثال نموذجي في هذا المقام[٦]. فالرجل يصرح بعدم ملاءمة النموذج الغربي لبلاده، ويؤكد على رغبة الشعب الروسي في العودة إلى القيصرية، ومركزية القيم المسيحية في شخصيته وهويته، وأن المعركة التي يخوضها هي ضد قيم الغرب، التي تحاول سلخه من هويته الدينية، وغزوه ثقافيًّا، ومن ثم استغلاله وموارده، وأنه صراع تاريخي وجيوسياسي بين قوى البحر والقوى الأوراسية، وليس مجرد تحرك لتحقيق مصالح اقتصادية بحتة. وهو هنا يمثل الوجه الفكري والأكاديمي للمشروع الروسي، الذي يتفق كثيرًا مع مساعي بوتين[٧].

فإذا كان الحال كذلك، فكيف يمكن محاسبة روسيا – بوتين السياسي، أو «دوجين» المنظّر، أو «كيريل» البطريرك – على تداخل السياسة مع الدين، وهم يصرحون بمركزية هذا التداخل في مشروعهم الحضاري، بل ويعتبرونه مواجهة ومقاومة للعلمانية، التي يسعى الغرب إلى فرضها على المجتمع الروسي؟ وكيف نحكم على هذا التداخل أو التحالف بالاستغلال، في الوقت الذي تمثل فيه قوة الدولة أهمية للكنيسة، وتمثل مكانة الكنيسة مكانةً للدولة؟

ولا يعني هذا الموافقة على علاقة الدولة بالكنيسة في روسيا بالضرورة، بل يضع تحديًا تفرضه النظرية السياسية الرابعة، وذلك التحدي بحسب ما يذهب إليه «دوجين» هو أن الاكتفاء برصد ظاهرة ما تتعلق بالشأن الروسي لا يعني الوصول إلى حكم قيمي عن تلك الظاهرة، بل يستلزم رصد الظاهرة وفق سياقها، وفي إطار المظلة الفكرية التي تحدث فيها وفي مفرداتها، ثم إفراد مساحة لمناقشة مبرراتها ورؤيتها التي

٥ جلّة سماعين: "النظرية السياسية الرابعة والأفكار: روسيا السياسية للقرن الواحد والعشرين"، **المستقبل العربي**، بيروت، العدد ٤٤٥، مارس ٢٠١٦. ص ١٧٠ : ١٧٤.

٦ جلال خشيب: "الجيوبوليتيك الروسية الحديثة والمعاصرة"، **مركز إدراك للدراسات والاستشارات**، (https://bit.ly/3ezW7xD)، تاريخ النشر: ١٧ ديسمبر ٢٠١٨.

٧ **قناة TeN TV**: "رأي عام: حوار خاص مع الفيلسوف والمفكر الروسي ألكسندر دوجين"، ملف فيديو (https://bit.ly/3ruAoMZ)، تاريخ النشر: ٤ سبتمبر ٢٠٢٠.

تنطلق منها. ويستلزم ذلك ألا يصف الظاهرة بالمقولات التي تتحداها. ويُقصد بالمقولات، في هذا السياق، المقولات العلمانية الغربية، أو مبادئ النظم السياسية الديموقراطية الغربية. فعلى سبيل المثال، يجب على الباحث ألّا يحسب أنه بمجرد كشفه عن علاقة للدولة بالكنيسة أنه فضح النظام الروسي أو عرّاه، فالنظام والكنيسة الروسيان يقرّان، بل ويفخران، بهذه العلاقة غير السرية على الإطلاق.

وينطبق هذا أيضًا على النقد الأخلاقوي للسياسة، واعتبار الكشف عن أن الدولة تسعى إلى تحقيق مصالحها وليس إلى الدفاع عن القيم والأخلاق والشعارات التي تُرفع أحيانًا، هو فضح لهذه الدولة أو تلك. هل يمكن الاعتراض على دولة؛ لسعيها إلى تحقيق مصالحها؟ هل يمكن تخيل دولة لا تستعمل كل الأدوات للحفاظ على أمنها؟ أليس كل شيء ممكنًا في السياسة؟

الإجابة، من حيث واقع الحال وما يجري وما جرى على أرض الواقع، نعم، كل شيء ممكن في السياسة، وكل شيء هو أداة محتملة في معركة سياسية، بل هكذا تكون حدود العمل السياسي باعتباره مجالًا إنسانيًّا خاصًّا لا يحتاج إلى تعريفات خارجية[٨].

أما إذا كانت الإجابة بـ «لا»، فهي مبرَّرة أيضًا بإحدى حالتين: الأولى: أن يكون الرفض بناءً على نظرية مغايرة للواقع رافضة بعضه، أي رفضًا أيديولوجيًّا أو فكريًّا، وفي هذه الحالة يستلزم تبيان مواطن الخلاف مع ما يجري في الواقع، وتقديم رؤية للواقع تُعرّفه ولا تُسقط عليه أفكاره. والثانية: أن يكون الرفض بناءً على خطاب سياسي أو واقع تاريخي مختلف، كأن يكون رفض هذه التصورات عن سياسات الدول لأنها تتعارض مع مبادئ القانون الدولي، أو مبادئ حقوق الإنسان... إلخ. وهنا لا يكون الرفض مقبولًا؛ نظرًا لتغير الواقع، وعدم اعتبار مبادئ واقع بات تاريخيًّا.

لكن الأمر ليس ببساطة هذا العرض، فلعلي أخطأت حين قلت إنه واقع تاريخي عفا عليه الزمن، فهو لم ينته تمامًا؛ فما زالت مؤسسات وسياسات العقد الأول من القرن الواحد والعشرين حية تسعى، بل يبدو أن هذا الواقع تاريخ ماضٍ في حالة روسيا، ومضارع في حالات أخرى من العالم. فالعالم ليس كتلة واحدة كما تصوَّره النموذج الغربي، واختلاف مجريات الأمور في مناطق العالم المختلفة دليل آخر على انزواء هذا التصور للعالم.

إذًا، فليست مسألة علاقة الدولة بالكنيسة في روسيا، ولا النقد الأخلاقوي لسعي الدولة إلى تحقيق مصالحها، بالبساطة التي نجدها في الخطاب السائد إبّان عقد الألفية الأول في الخطاب الغربي، الذي يعتبر مبادئ الديموقراطية والعلمانية والقانون الدولي مسلمات راسخة، لا نحتاج إلى مناقشتها عند كل حدث. فهذه المسلمات لم تعد كذلك - واقعيًّا الآن ونظريًّا منذ مدة - بفضل تيارات ما بعد الحداثة، وما بعد الكولونيالية، وتفكيك الاستعمارية.

٨ على أساس تعريف كارل شميت للسياسي على سبيل مثال، وهو ما يستعين به ألكسندر دوجين في نظريته الرابعة. انظر: كارل شميت: **مفهوم السياسي**، ترجمة: سومر المير محمود، القاهرة، مدارات للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٧.

بل ثمة حاجة وضرورة ملحّة للتعقيد بدلًا من التبسيط، وهنا يكون التعقيد ذاته أحد أدوات مواجهة النظرة الغربية التبسيطية، والاختلاف بدلًا من المطابقة. فالعلاقة بين الكنيسة والدولة ليست مجرد علاقة منفعة متبادلة أو استغلال أو فصل، بل تختلف تمامًا باختلاف طبيعة الدولة، وطبيعة الديانة، بل والمذهب، وتاريخية هذه العلاقة[٩]. وليست علاقة الدولة بغيرها من الدول مجرد علاقة احترام متبادل واحترام للسيادة، فهذه العلاقة لم تكن إلا في مثاليات المنظّرين والقانونيين الليبراليين، بل إن تاريخ السياسة يعتبر – من أحد أوجهه – تاريخًا لانتهاك السيادة.

وهنا فقط، نستطيع التوصل إلى إشكالية الدراسة التي بين أيدينا، وتتمثل تلك الإشكالية في وقوع الدراسة في شرك اللغة السائدة في العقد السابق، والتي ترتدي زي المبادئ الليبرالية في توصيف ظاهرة خارجة عن هذه المبادئ، فيوجه نقدًا للسياسة الخارجية الروسية، على اعتبار أنها تستغل الدين، وتتحجج بمحاربة الإرهاب، حتى توسّع من نطاق هيمنتها، على أساس مبادئ العقد السابق التي تعتبر توسيع الهيمنة سلوكًا مارقًا، اللهم إلا إن كان أمريكيًّا. والأصل ألا يأخذ المحلل السياسي بالخطاب السياسي التي تذيعه أي دولة للجمهور لتظهر أخلاقياتها وصورتها الحسنة، بل لا يعتبر إلا ما يراه من حقائق.

والغرض من توضيح إشكالية الدراسة في جانب من تحليلها، أن نظفر بما فيه من فائدة، وهي موزعة على المعلومات التي أوردها، والخلفيات التاريخية للأدوار الحالية للكنيسة والدولة الروسية، والدوافع الإستراتيجية للسياسة الروسية في المنطقة، وتطور هذه الخلفيات والدوافع والمواقف. بل إن تركيز الضوء على التدخل الروسي في سوريا، وأهدافه، ومآلاته، لا يقل عن كونه هدفًا في ذاته. فروسيا اليوم لم تعد كما كانت منذ خمس سنوات فقط[١٠]، وتحليل دورها وسياساتها يجب أن يكون بمعزل عن المواقف السابقة، التي تغذيها سجلات روسيا السابقة، والدعاية الغربية عنها، على حد سواء.

وتركز الدراسة على دور روسيا في المنطقة، وخلفيات هذا الدور الداخلية والخارجية، وكذلك آثار الدور الروسي على روسيا داخليًّا وسياستها الخارجية. ونحن الآن بحاجة إلى مزيد من التركيز على هذا الدور، الذي يمثل أحد مظاهر مستقبل العالم بلا شك.

---

٩ اقرأ عن الفوارق بين المسيحية والإسلام في: طلال أسد: **جينالوجيا الدين، الضبط وأسباب القوة في المسيحية والإسلام**، ترجمة: محمد عصفور، بيروت، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠١٧؛ وكذلك أرماندو سالفاتوري: **المجال العام والحداثة الليبرالية والكاثوليكية والإسلام**، ترجمة: أحمد زايد، القاهرة، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠١٢.

١٠ **جسور للدراسات**: "خمس سنوات على التدخل الروسي في سوريا ماذا أراد؟ وماذا حقق؟ تقرير تحليلي"، (https://bit.ly/38fUd4h)، تاريخ النشر: ٣٠ سبتمبر ٢٠٢٠.

مقدمة:

لا ريب في تدخل الدين في تشكيل سياسات الدول الخارجية وعلاقاتها الدولية؛ لذا لا بد من دراسة الدين في سياق أنه إحدى الأدوات السياسية، مثلما تُعتبر الجغرافيا السياسية كذلك. ويمكننا ملاحظة العلاقة بين الدين والسياسة في الواقع بوضوح؛ فنجد على سبيل المثال الإدارة السعودية والإيرانية للصراع الشيعي – السني سياسيًّا وأيديولوجيًّا، منذ حرب الخليج الأولى إلى غزو العراق عام ٢٠٠٣، وحتى الأزمتين السورية واليمنية الحاليتين؛ نجدها أكبر دليل على الصراع من أجل الهيمنة وبسط النفوذ على مناطق العالم الإسلامي، وبالتحديد الشرق الأوسط. وكذلك روسيا إلى حد كبير؛ فنظامها العلماني يربط سياسته الخارجية بدين روسيا المسيحية الأرثوذوكسية، كإستراتيجية لتحقيق مصالحه القومية في العودة قوة عظمى مرة أخرى. ونظريًّا، بحسب «جرازيانو»، فإنه يمكن لأي دين أن يكون عُرضة للاستغلال السياسي، ولأغراض ليس لها علاقة بخلاص الروح[١١].

وواقعيًّا، تغيرت روسيا بصورة واضحة منذ سقوط الاتحاد السوفيتي. فبينما عُرف الاتحاد السوفيتي بدعايته للأيديولوجية الشيوعية، كانت توجهات السياسة الخارجية الروسية، في فترة ما بعد الاتحاد السوفيتي، أبعد ما تكون عن الأيديولوجيا. وشأنها شأن كل الدول، تقوم سياستها الخارجية على أساس إستراتيجيات المصلحة الذاتية لتحقيق الأهداف القومية وحمايتها في السياسة العالمية. فإن السياسة الخارجية الروسية تركز على مجموعة من الأهداف الرئيسة؛ مثل: الحفاظ على قواعدها العسكرية خارج أراضيها، وضمان نمو اقتصادي قوي. لكن ظلَّ إغواء الأمجاد راسخًا فيها، ومحدِّدًا لرغبة روسيا الجامحة في تحقيق طموحاتها الجيوسياسية، وتوسيع مجال نفوذها.

وبعد سقوط الاتحاد السوفيتي، كانت روسيا تعاني من ضعف واضطراب سياسي، واقتصادي، واجتماعي كذلك. وقد أحدث السقوط المفاجئ للاتحاد السوفيتي ثغرات في العديد من المجالات. وكان القادة الروس قلقين حيال إعادة بناء روسيا لتستعيد مكانتها باعتبارها قوة عظمى، وقلّبوا النظر في جميع الإستراتيجيات لأجل هذا الغرض. فهي تسعى بشكل براجماتي إلى إعادة موضعها في السياسة العالمية، في سبيل بناء محيط حضاري جديد، أو على الأقل إعادة مجدها السوفيتي. وفي سبيل ذلك، طورت ما يُعرف بالدبلوماسية الدينية، باعتبارها قوة ناعمة، تريد روسيا بها أن يمتد خطابها الجيوسياسي من أوراسيا إلى الشرق الأوسط، تحت عدة ذرائع مثل قيادة جبهة مواجهة الإرهاب، بعيدًا عن العلاقات الروسية – الأمريكية المتقلبة، التي تميل في بعض الأحيان إلى العداء، فيما يخص مجال النفوذ، مع التعاون – إلى حد ما – في أحيان أخرى عندما يتعلق الأمر بالحرب على الإرهاب.

وبدوره تسعى هذه الدراسة[١٢] إلى الاستكشاف النقدي لمدى تأثير الدين، لا سيما تأثير قيادة الكنيسة

11 Graziano, 2018.

١٢ هذه الدارسة صادرة عن الدورية الأكاديمية لدار Scientific Research Publishing، ومنشورة بموقعه الإلكتروني

الأرثوذوكسية الروسية على عملية صنع القرار في السياسة الخارجية الروسية. باختصار؛ يدرس الدراسة العلاقة بين السياسة الخارجية الروسية والكنيسة الأرثوذوكسية الروسية، حيث شهدت فترة ما بعد الاتحاد السوفيتي صعود الخطاب الديني في السياسة الخارجية الروسية، بعدما نُحي الدين تمامًا إبان النظام الشيوعي للاتحاد السوفيتي، وأصبحت الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية تنظم دعاية نشطة لدعم ومباركة الحرب، التي تقودها روسيا على الإرهاب والتطرف، خصوصًا في الشرق الأوسط ذي الأغلبية المسلمة، متحجّجة بحماية الأقليات المسيحية في سوريا والعراق تحديدًا. علينا إذًا أن نتساءل: لماذا تعلن الكنيسة الأرثوذوكسية موقفها الداعم للحرب على الإرهاب، وتعتبره حربًا مقدسة؟ وكيف استثمر القادة الروس هذا الإعلان لحماية الأمن القومي الروسي ضد التهديدات الدولية، مع توسيعهم دائرة نفوذها، وخلق محيط جيوسياسي جديد في السياسة العالمية؟

وتكمن الحجة الرئيسة لهذه الدراسة، في أن جبهة محاربة الإرهاب الروسية في الشرق الأوسط، وتحديدًا في سوريا، تستند إلى أساس الهوية القومية، وأن هدف الإستراتيجية المركّزة على الأمن هي أن تكون روسيا قوة مهيمنة، عن طريق الانخراط العميق في المنطقة بحجة محاربة الإرهاب. إضافة إلى ما يذكره «وارجاس»[١٣] من أن أحد أهم أسباب التدخل العسكري الروسي في سوريا هو حماية الأقليات المسيحية فيها. وعليه؛ فإن السياسة الخارجية الروسية تسير جنبًا إلى جنب مع الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية؛ لتحقيق هذا الهدف. وعليه؛ فإن مفهوم الدبلوماسية الدينية، باعتباره شكلًا من أشكال القوة الناعمة أو الدبلوماسية الناعمة[١٤]، يشغل الجزء الأول من هذه الدراسة، في حين تشغل القوة الخشنة بإعلان الحرب على الإرهاب جزءها الثاني.

وتخضع القوة الناعمة الروسية لدراسة أكاديمية وحكومية كثيفة؛ بسبب وضع روسيا لعبة القوة الناعمة ركنًا أساسيًّا في خطتها لاستعادة مكانتها، حتى وإن جاءت هذه الخطوة متأخرة[١٥]. ونواياها تكمن في توطين نفوذها غير العسكري في مجال نفوذ ما بعد الاتحاد السفيتي[١٦]. فمنذ سنوات، تمارس روسيا أعمالًا عسكرية في أوكرانيا، وجورجيا، وسوريا. ففي أوكرانيا إبان الثورة البرتقالية عام ٢٠٠٤، وعام ٢٠١٤، تدخلت لضم

بتاريخ: أكتوبر ٢٠٢٠، بعنوان: «When Politics Allied with Religion: Russia's New Strategy to Dominate the Middle East under the Pretext of Fighting Terrorism»، على الرابط: https://bit.ly/3j2Z5xT

وقد صدرت الدراسة بشكر وعرفان جاء فيه: هذه الدراسة مدعومة من البرنامج البحثي 0004 - 004 - RIGS18 - P بعنوان «تفكيك استعمار العلوم الاجتماعية من مقاربة التمركز الأوروبي: تأسيس رؤية عالمية تكاملية"، من الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا. يقترح المشروع مقاربات تكاملية جديدة في دراسة ظواهر العلوم الاجتماعية، مثل: العلاقة بين الدين والدولة. هذه المنحة الجزئية (RM5000) تقدَّم لمساعدة أعضاء هيئة التدريس في الجامعة في نفقات النشر.

13 Wargas, 2015.

14 Curanovic, 2012.

15 Rutland & Kazantsev, 2016.

16 Cheskin, 2017.

شبه جزيرة القرم. وفي جورجيا أظهرت روسيا إعادة بعثها باعتبارها قوة عسكرية، وذلك بتعاملها العنيف معها بحجة الرد على العدوان على أوسيتيا الجنوبية. وهذان النزاعان تعود جذورهما الواقعية إلى أوائل التسعينيات من القرن العشرين. أما سوريا، فإن روسيا بدأت تدخّلها العسكري في ٣٠ سبتمبر/ أيلول ٢٠١٥ لدعم حكومة بشار الأسد. وتعكس هذه الحالات الثلاث الصورة السلبية السائدة عن القوة الخشنة لروسيا، وتؤكد فشلها في تعزيز مشاركة قوتها الناعمة في سياساتها.

ويرى «كورانوفيتش»[١٧] أن روسيا تستخدم الدبلوماسية الدينية على الساحة الدولية عندما تقدم الدعم للدبلوماسية الناعمة. وتشير كلمة «الدبلوماسية الناعمة»، باختصار، إلى هذه الحالة التي فيها تعزز المنظمات غير الحكومية (مثل المؤسسات الدينية) علاقاتها بما يشبهها من مجموعات حول العالم؛ مما يساعد تدريجيًّا على تحسين صورة بلدها. وبحسب «لاين وساريلاينين»[١٨]، فإن كلًّا من المسئولين الروس والكنيسة الأرثوذوكسية الروسية قد استخدموا الجوانب الروحية داخليًّا وخارجيًّا في دبلوماسيتهم العامة[١٩].

الدين في السياسة الخارجية الروسية:

أثناء عملية التحول الديموقراطي، التي نهضت بها التدخلات السياسية في روسيا إبان الاتحاد السوفيتي، أخذ الدين والكنيسة الأرثوذوكسية مكانهما في صناعة قرارات السياسة الخارجية، وزُرعا في العمليات السياسية، منخرطين في ممارسات قد تؤثر على عمليات النظام السياسي وسياسته الخارجية، حتى يسهم تدخلهما في العديد من القضايا الخارجية لتحقيق المصالح الوطنية. واستخدم القادة الروس الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية أداةً لسياستهم الخارجية، وأعادوا – تحت إدارة بوتين – أراضي الكنيسة وممتلكاتها إليها بعدما سلبها منها النظام الشيوعي. ويرى بعض العلمانيين الغربيين في هذا موافقة من الكنيسة لأن تكون دُمْية في يد النظام الروسي، وأن تساعد بوتين على البقاء في السلطة، في ظل الأزمات الداخلية كانهيار أسعار النفط.

وخلال هذه الفترة من التحول الديموقراطي، التي ظهرت بشكل ما قبل عدة سنوات من انهيار الاتحاد السوفيتي، طورت إدارة «ميخائيل جورباتشوف» سياسات اقتصادية وسياسية، كانت ستغير طريقة تفكير السياسيين والمواطنين على حد سواء. فسياسة التجميع[٢٠] باتت معرضة لشتى أشكال التحرير بما فيها

17 Curanovic, 2012.

18 Laine and Saarelainen 2017.

١٩ للمزيد اطلع على:

Curanovic, 2012; Tserpitskaya, 2005; Pavlovich, 2007.

٢٠ يقصد بسياسة التجميع: تجميع الأراضي وتشريكها، التي تبناها ستالين بشكل واسع، خصوصًا التجميع الجبري في الريف، والمشاركة الجماعية في زراعة أراضي الدولة السوفيتية، وهي السياسة التي سعى «جورباتشوف» إلى تفكيكها (المترجم).

الحرية الدينية. وكما يورد «بريان»، فإن الكنيسة الأرثوذوكسية كان جزءًا مؤثرًا في الدولة قبل الثورة البلشفية عام ١٩١٧. وقد قبلت بعض الامتيازات التي قدمتها لها الدولة في مقابل تقديمها بعض الخدمات. ولذلك كانت مكانة الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية وتأثيراتها وثيقة الصلة بوضع القيصر، لكن عندما قامت الثورة، عُزلت الكنيسة عن بقية العالم المسيحي، وفقدت الكثير من شركائها ممن تتوسم فيهم تقديم الدعم والمعونة[٢١].

وفي ٢٣ يناير/ كانون الثاني ١٩١٨، صدر مرسوم بفصل جميع الكنائس وجميع الجوانب الدينية عن الدولة والنظام التعليمي بالذات، إضافة إلى حرمان الكنيسة من حق التملك في ظل الدولة، وبقي موقفها غامضًا رغم السماح القانوني والرسمي لها بالعمل[٢٢]. على أن العمل الوحيد المرغوب فيه، هو أن تبسط نفوذها على الكنائس الأرثوذوكسية في دول أوروبا الشرقية الواقعة تحت سلطة الاتحاد السوفيتي، خصوصًا بعد الحرب العالمية الثانية[٢٣]. وقد اتسم الشيوعيون بالشدة تجاه أي مظهر ديني؛ فأُممت بعض الكنائس، وتحول بعضها إلى سجون ومعسكرات اعتقال، وضُمنت مناهضة المسيحية في المناهج الدراسية، وأُعدم العديد من القساوسة والرهبان، وكثير من مسئولي الكنيسة.

لقد كانت فلسفة محدِّدة للحياة؛ إذ كان الشيوعيون يعتقدون في الأساس المادي للحياة، وأن مقولة «الإله» قابلة للاختبار العلمي. وزعموا أن هذه الفكرة قد استغلها الأساقفة والمستبدون لاستعباد عقول الناس، وضمان رضوخهم وطاعتهم لأوامر أسيادهم، مؤكدين خصومة الدين مع العلم، وصمته إزاء استغلال البشر[٢٤]. واعتبروا التعاليم الدينية مجرد خرافات تعود إلى العصر الذهبي للكنيسة، وأثّرت في العقول والسلوكيات في مجتمع ما قبل الثورة. أما المنطق الثوري الشيوعي فلا يمكن أن يقبل بها.

لكن بعد انهيار المعسكر الشيوعي، وسقوط الإمبراطورية السوفيتية، تغير العديد من هذه القواعد تباعًا؛ فزادت مظاهر الحرية الدينية والالتزام الديني في روسيا الجديدة، وبدأت الكنيسة الأرثوذوكسية تتمتع بطابع رسمي باعتبارها الكنيسة الوطنية، واعتقد العديد من المراقبين[٢٥] أن الدين سيمثل قاعدة لتعبئة سياسية، خارج إطار الدولة، لكن لم تكن هذه هي النتيجة[٢٦].

ففي روسيا ما بعد الاتحاد السوفيتي، تغير الموقف الرسمي للكنائس جوهريًّا بعد فترة طويلة من القمع؛ فظهر نوع من الحرية الدينية في أعقاب سقوط النظام الإلحادي للاتحاد السوفيتي، الذي ترك فراغًا روحيًّا،

21 Bryan, 1942.

22 Petrenko, 2012.

23 Petrenko, 2012.

24 Bryan, 1942.

25 Bentwich, 2015; Dalton, 2013; Rose & Urwin, 1969.

26 White & McAllister, 2000.

يجعل من روسيا أرضًا مناسبة لنشاط الإرساليات التبشيرية. ورغم هذه الحرية الدينية، خشيت الكنيسة الأرثوذوكسية أن تهمَّش وتكُون مجرد كيان ديني وليس مؤسسة دينية مهيمنة ومشكّلة للثقافة، ومن ثم تضيع فرصتها في إعادة بناء نفوذها الاجتماعي. ولذلك نجحت في أن تدفع الحكومة إلى تمرير قانون عام ١٩٩٧، الذي يمنع حرية ممارسة أي ديانة أو معتقد يعتبر ذا أصل أجنبي. ولم يحدد هذا القانون التكميلي، المعروف بقانون حرية الاعتقاد، دينًا رسميًّا للدولة، لكن اعترف بالمسيحية الأرثوذوكسية الروسية، واليهودية، والإسلام، والبوذية، باعتبارها أديانًا تقليدية. وأكد على الإسهام الخاص للأرثوذوكسية في تشكيل تاريخ روسيا، وتأسيس وتطوير روحانيتها وثقافتها. وعليه، أعاد القانون وضع الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية في مكانة تسمح لها بتشكيل الثقافة الوطنية الجديدة[٢٧].

ولم ينفك تداخل الكنيسة الروسية مع الدولة منذ ما يقارب ١٣٠٠ عام، اللهم إلا ٧٤ سنة من الحكم السوفيتي بين ١٩١٧ و١٩٩١، الذي همّشها وحجّم دورها[٢٨]. ومن ثم لم يهدر الرئيس الروسي فلاديمير بوتين وقتًا في اختيار موضع نفوذ للكنيسة، واستغل فرصة إعلان الكنيسة رؤيتها لدور روسيا في العالم؛ حتى يقوّي دورها في المجتمع الروسي، وأشار بحُنْكة إلى الدور الذي يمكن أن تقوم به في إرساء وتنمية الهوية القومية، فكان لنفوذ الكنيسة دور حيوي في عملية تحول روسيا، كما انعكس ذلك على وسائل الإعلام. كذلك يُظهر الدعم الذي تقدمه الدولة لهذه الكنيسة القوية رغبتها في الابتعاد عن الغرب العلماني، وحنينها إلى العودة إلى ماضيها الإمبراطوري القيصري، حيث تحدد كنيسة الدولة المستبدة الحياة العامة، ويستخدمها المسئولون باعتبارها قوة ناعمة لتوسيع هيمنتها حتى أوسع نطاق جغرافي[٢٩]. وإذا كان من الواضح الدور الحيوي للكنيسة في صياغة السياسة الخارجية الروسية، في فترة ما بعد الاتحاد السوفيتي، فإنها كانت أداة جيوسياسية لدعم الصعود الروسي على الساحة العالمية، كما يرى البعض.

هنا تظهر بعض الأسئلة، من قبيل: كيف يمكن أن تمثل الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية الهوية القومية، في حين شكّل الدين دورًا محدودًا للغاية في تحديد السياسة الروسية في أواخر التسعينيات؟ وكيف يمكن للثقة أن تزداد في الكنيسة بعد عام واحد فقط من انقسامها عام ١٩٩٤؟[٣٠] ولماذا كان للدين – بشكل عام – تأثير ضعيف على الوضع السياسي لروسيا بعد سقوط الاتحاد السوفيتي مباشرة (١٩٩٤ – ١٩٩٥)؟ هذا التأثير الضعيف له عدة تفسيرات؛ أولًا: كان رعايا الكنيسة شهودًا على فترة سياسية انتقالية مليئة بالاضطرابات في وقت قصير؛ فمنذ عدة سنوات فقط كانت الكنيسة تعاني من القمع، وكذلك كانت الكنيسة نفسها تفتقد مجموعة من الظروف لتشارك في السياسة، وتؤثر في السلوك السياسي.

---

27 Coyer, 2015.

28 Spencer, 2017.

29 Ibid.

٣٠ في إشارة إلى تأسيس الكنيسة الروسية الأرثوذوكسية المستقلة على يد من مجموعة من الأساقفة غير الراضين عن الكنيسة الروسية (المترجم).

أما السبب الثاني فيتضح من خلال فهم الغياب شبه الكلي للمجتمع المدني، الذي يؤيده اقتصاد سوق فعال، وتحكُمه دولة ليبرالية ديموقراطية[٣١]. ولكن في أوائل الألفية الجديدة، عندما كان يصعد نجم الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، كانت مكانة الكنيسة الأرثوذوكسية تؤهلها لمشاركة متزايدة في تشكيل الحياة العامة والسياسة الخارجية إلى حد معقول.

وتُظهر المعطيات السابقة الحاجة إلى الربط بين النواحي الثقافية والروحية في إستراتيجية الأمن القومي الروسية، وعقيدة السياسة الخارجية[٣٢]. وقد تبنت روسيا عقيدة[٣٣] واسعة النطاق، تركز على القيم الروحية، وغرستها في أولويات التخطيط الإستراتيجي في كل من إستراتيجية الأمن القومي، وعقيدة السياسة الخارجية الروسية[٣٤]، وهو ما يكشف عن تغلغل للروحانية في الخطاب الروسي في وقت قياسي. وبناءً على هذه العقيدة؛ وثّق السياسيون والمسئولون الصلات بين الثقافة الروسية والكنيسة الأرثوذوكسية. وعلى حد تعبير وزير خارجية روسيا منذ عام ٢٠٠٤، سيرجي لافروف، فإن التعاون بين المسئولين الروس والكنيسة ظل لفترة طويلة أحد التقاليد الدبلوماسية المحلية. والوزير نفسه تربطه علاقة قوية بالكنيسة التي ينتمي إليها غالبية الروس، كما أكد على أن قيم الجمهورية الروسية مستمدة من الكنيسة الأرثوذوكسية أثناء تكوين الدولة، واعترف بدورها في تشكيل ثقافة المجتمع الروسي متعدد الأعراق والديانات، ووعيه، بحسب قوله: "إننا نشيد بدور الكنيسة الأرثوذوكسية في الحياة الروسية، بصفتها إحدى قوى توحيد المجتمع"[٣٥].

وقد أدى هذا إلى واقع ملتبس، تقوم فيه دولة علمانية بالدفاع عن حقوق الآخرين خارج البلاد، نيابة عن قيم تقليدية ومؤسسة دينية هي الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية. وحقيقة الأمر، أن القادة الروس يرون في الكنيسة فرصة سياسية لا بد من استغلالها قبل فوات الأوان، وذلك بالتأكيد على العلاقة الوثيقة بين السياسة الخارجية الروسية والكنيسة، حيث تعمل الدولة والكنيسة معًا لتحقيق أهداف السياسة الخارجية. وفي هذا الصدد، يصف سيرجي لافروف الكنيسة الأرثوذوكسية بأنها "ليست بأقل من العماد الأساسي للحكومة في هذا المجال بحال من الأحوال"[٣٦].

ويرى «زاراخوفيتش»، في مقال له في جريدة "التايم"، أن بوتين يسعى إلى الاستيلاء على الكنيسة الأرثوذوكسية خارج روسيا[٣٧]، وضمها إلى البطريركية الروسية؛ بهدف إنشاء كنيسة عالمية جديدة، تكون

---

31 White & McAllister, 2000, p. 370.

32 *National Security Strategy* (NSS). *Foreign Policy Concept* (FPC).

٣٣ استخدم كلمة عقيدة تحديدًا، بدلًا من التصور والرؤية مثلًا؛ لشيوع هذا اللفظ في الخطاب الروسي، بما في ذلك الخطاب العربي المذاع على قناة روسيا العربية، وهو يدل على ما تسعى الدراسة لإثباته (المترجم).

34 Blitt, 2011.

35 Ibid., p. 375.

36 Ibid., p. 381.

٣٧ تعرف اختصارًا بـ ROCOR، وقد أنشئت في أوائل العشرينيات من القرن العشرين، باعتبارها قضاء كنسيًّا مستقلًّا

الذراع الأيديولوجي له، وأداته الحيوية في السياسة الخارجية. وتقع الكنيسة الروسية الأرثوذوكسية خارج روسيا ضمن مجموعة من القوى الجيوسياسية الناعمة لدى الكرملين، التي مهدت بعض الطرق الصعبة في عمليات السياسة الخارجية الروسية.

وإذا نظرنا بتمعن إلى التفاعلات الحالية بين «روسكي مير» (العالَم الروسي)[٣٨] والكنيسة الأرثوذوكسية الروسية، نجد أن العلاقة بينهما في تطور. فكما يعتقد «لين وساريلاينن» أن مفهوم «العالَم الروسي» نفسه ليس إلا استعارة جيوسياسية تحيل إلى مفهوم «روسيا المقدسة»[٣٩]، وهو ما يقوي فكرة الرابطة الروحية بين جميع الروس، ليس فقط من هم داخل حدود الفيدرالية الروسية، بل من هم خارجها كذلك، بما في ذلك جميع الناطقين باللغة السلافية أحيانًا.

ولا يقتصر مفهوم الأمن الروحي على البُعد الداخلي، بل له بُعد خارجي مرتبط بدور الكنيسة الأرثوذوكسية خارجيًّا، وهو ما صرح به بوتين عام ٢٠٠٩، حين كان رئيسًا للوزراء في إدارة الرئيس ديمتري ميدفيديف حين قال: "دافعت الكنيسة الروسية دائمًا في حوارها مع الكنائس الشقيقة الأخرى عن الهوية القومية والروحية للروس، ونأمل أن يستمر دفاعها هذا"[٤٠]. ومع بداية القرن الواحد والعشرين، اتخذ الدين موقعًا سياسيًّا، ما دام يسير وفقًا للأهداف الرئيسة للسياسة الخارجية الروسية. ويركز «باين»[٤١] على ثلاثة أدوار للكنيسة الأرثوذوكسية؛

الأول: إحكام سيطرتها على الشتات الروسي بالتوافق مع مفهوم بوتين عن «الأمن الروحي».

الثاني: إعادة ممتلكات الكنيسة إليها بعدما فقدتها أثناء الحقبة الشيوعية، وهو ما أتاحته علاقتها مع الدولة.

والثالث: قيام الكنيسة بتوسيع نفوذ الحكومة الروسية حول العالم من خلال علاقتها بوزارة الخارجية الروسية.

وتسجل «إليشيا كورانوفيتش» ملاحظتها عن التأثير الواضح والخفي للأديان الروسية على قراراتها الخارجية، مؤكدة أن العامل الذي يُتجاهل دائمًا (الدين) هو في الواقع محدد أيديولوجي وثقافي مهم في

للأرثوذوكس الشرقيين، ومنذ عام ٢٠٠٧ أصبحت جزءًا شبه مستقل من الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية.

٣٨ يعني المصطلح الروسي Русский мир: العالم الروسي أو السلام الروسي.

٣٩ حسب تعبير «إيفان إيلين»، الفيلسوف الروسي المفضل لبوتين، فروسيا حضارة مسيحية فريدة ومتفردة، ومسئوليتها أمام الله وحده، وروسيا المقدسة مفهوم مسيحي متعلق بالجنة الأرضية، واعتُبرت موسكو في هذ الإطار القدس الثانية، وروما الثالثة بعد روما والقسطنطينية (المترجم).

40 Payne, 2010.

41 Ibid., p. 713.

سلوك روسيا محليًّا وإقليميًّا ودوليًّا[٤٢].

أما تاريخيًّا، فإن استخدام الدين أداةً لتبرير التدخلات الخارجية يعتبر تقليدًا متجذرًا، خصوصًا في حالة روسيا في القرن التاسع عشر، إذ كانت حماية الأقليات الدينية في الأراضي العثمانية أحد أوائل أشكال التدخل الإنساني المقبولة قانونًا[٤٣]. وقد كانت إحدى أدوات تأكيد وترسيخ سياسات العلاقات غير المتكافئة، وإن كان المعروف أن التدخل تحت اسم حماية الأقليات مسألة سياسية، فهو أيضًا صاحب قدرة على تحريك حدود المبادئ القانونية[٤٤].

وفي حالة الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية، يجب أن لا يقود فهمنا لدورها كفاعل عالمي في السياسة العالمية وعلاقاتها مع السياسة الخارجية الروسية إلى التعجل في الحكم. فإن بات الدين بشكل عام، والكنيسة الأرثوذوكسية بشكل خاص، رأس حربة السياسية الخارجية الروسية في تحقيق طموحاتها وأهدافها الجيوسياسية؛ فإن من المبكر تحديد شكل للعلاقة بينهما؛ فالموضوع لا يزال قيد البحث. على سبيل المثال، توافق الكنيسة على أن تستخدمها الدولة في بعض الأحيان أداةً سياسية أو دبلوماسية في الحالات السياسية الدولية، التي قد يعتبر فيها التدخل الروسي احتلالًا[٤٥]. وقد دفع توفير المبررات الفكرية والأيديولوجية للأجندة الروسية في الأوضاع العالمية، مسئولي الكرملين إلى العمل مع مؤسسات مختلفة لهذا الغرض، بحيث تصبح هذه المؤسسات مراكز فكرية دينية أو مؤيدة للحكومة[٤٦]. وعليه؛ فإن الكنيسة وفرت الدعم والتبرير لموقف روسيا الرسمي من التدخلات العسكرية الغربية في يوغوسلافيا السابقة، والعراق، وأفغانستان، وسوريا.

أما مسألة التطرف الديني، وكيف يمثل تهديدًا للأمن القومي الروسي، فهي مسألة أخرى بحاجة إلى تحقيق جاد. فالعديد من التكوينات الاجتماعية والسياسية تغيرت أثناء فترة رئاسة ديمتري ميدفيديف من ٢٠٠٨ إلى ٢٠١٢. وفي الواقع كانت إستراتيجية ميدفيديف للأمن القومي امتدادًا للرؤية الإستراتيجية التي وضعها بوتين لمواجهة أي طارئ يهدد الأمن القومي الروسي[٤٧]. فعلى سبيل المثال، صُنفت أنشطة وكالات الاستخبارات، والحكومات الأجنبية، ومختلف المنظمات والأفراد، باعتبارها تهديدات جسيمة للأمن القومي الروسي، ويجب القضاء عليها جميعًا، خصوصًا أنشطة المنظمات الإرهابية[٤٨]. وكذلك التصدي للمنظمات الدينية، أو المنظمات غير الحكومية الدخيلة، من خلال خلق عقبات إستراتيجية كالقواعد

42 Huemmer, 2014.

43 Kroll, 2016.

44 Ibid.

45 Tserpitskaya, 2005.

46 Petrenko,2012.

47 Blitt, 2011.

٤٨ مثلًا: صُنفت العلموية تطرفًا مثلها مثل أتباع حركة سعيد الدين النورسي الصوفية.

البيروقراطية، وغيرها من التكتيكات والإستراتيجيات التي حددها بوتين بنفسه، ودعمتها الكنيسة الأرثوذوكسية بحماسة شديدة[٤٩].

ولأن هذه الرؤية الإستراتيجية ماضية حتى الآن، باعتبارها طريقًا للحيلولة دون تهديد محتمل، فإن السياسيين الروس يعودون إلى الكنيسة لعقد تحالف قوي؛ بهدف إحياء القومية الروسية، وإعادة أمجاد العصر الذهبي القيصري إلى الوعي العام من ناحية، والقضاء على المنظمات الدينية الأجنبية من ناحية أخرى. ولذلك ظل كل من بوتين وميدفيديف يؤكد على أن روسيا الحديثة يجب أن تستند إلى الروح الأرثوذوكسية[٥٠]. وحتى يؤكد على الخطر الروحي المحدق بروسيا؛ حدد بوتين في عقيدة الأمن القومي عام ٢٠٠٠ العلاقة الوثيقة بين الدين والثقافة والقومية، وشدد على الدور المحوري للكنيسة في الثقافة الروسية والنظام الاجتماعي[٥١].

الجبهة الروسية لمكافحة الإرهاب في الشرق الأوسط: حالة سوريا:

الشرق الأوسط مهم لموسكو؛ وهذا يرجع – بحسب «ديمتري ترينن» – إلى سببين رئيسين: القرب الجغرافي، وعامل الإسلام؛ إذ يتشارك المسلمون الروس مع المسلمين في الشرق مشاعر الأخوة والوحدة[٥٢]. وبناء عليه؛ تسعى روسيا لأن يمتد خطابها الديني على طول امتداد سياستها الخارجية، من القوقاز (الشيشان) حتى الشرق الأوسط (سوريا). فهي لا تريد أن تكرر أخطاء التجربة الليبية التي خسرتها روسيا باعتبارها واجهة جيوسياسية، في مقابل توسع حلف النيتو NATO في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا MENA؛ لذلك فتحت شعار «نتعلم من ليبيا لنعمل في سوريا». وتسعى روسيا إلى استعادة مكانتها باعتبارها قوة رئيسة في الشرق الأوسط. وقد أُعيد بعث الأيديولوجيا الروسية عن فرادتها في أوراسيا (الأوراسية) بشكل واضح في منطقة الشرق الأوسط كذلك.

وتقع مناطق شرق أوروبا، وآسيا الوسطى، والشرق الأوسط، في محيط السياسة الخارجية الروسية. لكن على العكس من مناطق شرق أوروبا وآسيا الوسطى، يُعرف المسلمون في الشرق الأوسط بخصوصيتهم الدينية، ويبرز الإسلام فيها باعتباره الدين الأظهر والأوسع انتشارًا. ويرى الفيلسوف الروسي «ألكسندر دوجين»، الذي يوصف بأنه عقل بوتين المدبر، بعدما رصد كيف استطاعت السياسة الخارجية الروسية توسيع خطابها الديني ليشمل القوقاز والشرق الأوسط، رأى أن الافتراضات الضمنية لروسيا – باعتبارها قوة عظمى – تأتي بالتوافق مع عقيدة جيوسياسية مركزها أوراسيا، وهذه العقيدة تهدف إلى توحيد السلاف[٥٣]

49 Blitt, 2011, p. 370.

50 Interfax, 2010.

51 Payne, 2010.

52 Trenin, 2010.

٥٣ وهم معروفون بالصقالبة أيضًا، والسلاف عرق إثني هندو أوروبي، يتحدث اللغة السلافية (الناشر).

مع مسلمي آسيا الوسطى حتى حدود الشرق الأوسط، ضد حلف النيتو. وفي الوقت نفسه التحالف مع إيران والدول ذات الأيديولوجية القومية المتشابهة مثل: ليبيا وسوريا[٥٤]. لكن - كما نعلم - روسيا فقدت ليبيا لصالح الغرب؛ بعد سقوط نظام القذافي على يد متمردين مدعومين من حلف النيتو؛ ومن ثم، تسعى روسيا لتدعيم وسطها الجيوسياسي في البلدان التي لا تزال في نطاق تحالفها، وسوريا بصفة خاصة.

تبعًا للقادة الروس، فإن الجماعات الجهادية في القوقاز وفي الشرق الأوسط مرتبطتان لوجستيًّا وروحيًّا، وتتعاونان على زعزعة الاستقرار الأمني في روسيا داخليًّا، وتهديد المصالح الجيوسياسية الروسية في المنطقتين خارجيًّا. ولا يقف خطر الجماعات الجهادية على الصعيدين المحلي والإقليمي، بل يمتد إلى الصعيد الدولي؛ إذ تمثل تهديدًا عالميًّا للأمن الدولي الجماعي. لذلك تحاول روسيا أن تلعب على وتر الحرب العالمية على الإرهاب، لتكون قائدة له بجانب الولايات المتحدة، التي أعلنت هذه الحرب منذ الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١.

وعلى أرض الواقع، كان لروسيا دور مهم في هذه الصراعات؛ فمنذ بداية الحرب الأهلية في سوريا، عملت بصفتها وسيطًا في النزاع، الذي انتهى عام ٢٠١٥ بالتدخل العسكري. ومن خلال النقاشات المستمرة والمتعمقة، حول إستراتيجيات السياسة الخارجية الروسية في سوريا، برزت الحاجة الملحّة لتحليل الأسباب الرئيسة الكامنة وراء قرار السياسة الخارجية الروسية بالتدخل في الحالة السورية. فقد تشكل نوع من العلاقة بين روسيا والغرب؛ بهدف مكافحة الإرهاب في المنطقة. وقد دعا السياسيون الروس، بمن فيهم الرئيس فلاديمير بوتين، مرارًا إلى تنحية الخلافات، وتأسيس تحالف دولي لمواجهة الإرهاب. كذلك صرح وزير الدفاع الروسي سيرجي شويجو: "سنجدد الدعوة مرارًا وتكرارًا إلى توحيد المجتمع العسكري لمواجهة الإرهاب"[٥٥]، وهو ما يشير بوضوح إلى عدم رغبة روسيا في تحمل أعباء إستراتيجية الحرب على الإرهاب بمفردها، حتى وإن بدت مندفعة في البداية بمنطق التفوق والهيمنة، حتى تكون قائدة تأخذ زمام مبادرة الحرب على الإرهاب في المنطقة وهزيمته[٥٦].

وفي مرة هي الأولى من نوعها منذ إنشاء الجمعية العامة للأمم المتحدة، ركز بوتين ٢٨ سبتمبر/ أيلول

٥٤ ألكسندر دوجين: فيلسوف ومؤرخ وعالم اجتماع وجغرافيا سياسية روسي، ورئيس مركز أبحاث قسم علم الاجتماع في جامعة موسكو الحكومية، وُلد عام ١٩٦٢، ويحظى باهتمام كبير في العالم الغربي؛ إذ يعتبره الليبراليون أخطر الفلاسفة الأحياء، ويلاحقونه بالعديد من التهم؛ كالفاشية، ومعاداة السامية، وهو بدوره لا يسعى إلى نفيها، فهو على أقل تقدير مثير للجدل. وتتركز أفكاره على الصراع الجيوسياسي التاريخي والقيمي بين القارية والأطلسية، وهو ينظّر للحركة الأوراسية. أما إسهامه النظري الأهم الذي يُعرف نفسه به، فهو «النظرية السياسية الرابعة»، بعد النظريات الغربية الثلاث: الليبرالية، والاشتراكية، والفاشية. وهي تدافع عن عالم متعدد الأقطاب، وعن القيم الخاصة بالحضارات، وتدعو إلى نقض النموذج الغربي والعولمة، ومواجهة محاولات فرضها، والعودة إلى القيم والتقاليد التاريخية لكل نموذج. تُرجم كتاب واحد له إلى العربية هو «**أسس الجيوبولتيك**» (المترجم).

55 Klimentyev, 2017.

56 Ibid., 2017.

٢٠١٥ على القضايا والأحداث المدرجة في الأجندة الدولية، مسلطًا الضوء على الحرب على الإرهاب، ودعا إلى إنشاء تحالف دولي لمحاربة الإرهاب. كذلك أكد قبلها وزير الخارجية الروسي سيرجي لافروف أن فكرة الرئيس بوتين لاقت العديد من الداعمين. في الوقت الذي لم يصرح فيه مجلس الأمن الدولي ولا النظام السوري لغارات الولايات المتحدة وحلفائها على تنظيم الدولة الإسلامية في سوريا، في حين حصلت روسيا على الضوء الأخضر لبدء حملتها العسكرية والجوية ضد الإرهابيين، بطلب من الرئيس السوري. وكانت روسيا لفترة طويلة مهتمة بالشئون السياسية السورية؛ فسوريا بمثابة أقوى حليف لروسيا في الشرق الأوسط بجانب إيران، وهي شريك مهم لروسيا في الشرق العربي للأسباب الآتية: أولًا: استقلالها النسبي عن الغرب، وثانيًا: حكومتها العلمانية، وثالثًا: التقليد الراسخ للتعاون الثنائي[٥٧]. وكذلك فإن بوتين يرى أن للحرب السورية ما يبررها؛ نتيجة تهديد ما يسمونه بالإرهاب الإسلامي للأمن السوري والروسي.

وكما ذكرنا آنفًا، تستخدم السياسة الخارجية الروسية عدة أدوات سياسية ودبلوماسية؛ للتعاطي مع القضايا المتعلقة بشكل خاص بالحرب على الإرهاب. وإحدى هذه الأدوات استعمال المؤسسات الدينية، باعتبارها أحد أشكال القوة الناعمة. وإذا قررنا أن السياسة الخارجية الروسية فاعل واقعي، فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: هل للكنيسة أي تأثير على العملية السياسية العلمانية في روسيا؟[٥٨]. ظاهريًّا، يُزعم أن بعض الطوائف والمؤسسات الدينية المسيحية، مثل الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية، أقل عنفًا على المستوى الفكري والعلمي، وهم أبعد ما يكونون عن الأصولية والتطرف، وأقرب إلى الدعوة إلى السلام والتسامح. في مقابل ما يُدعى بالجماعات الإسلامية الجهادية، المنبثقة عن فرق إسلامية مختلفة، وخصوصًا تلك التي ظهرت فيما بعد ما يسمى بـ «الربيع العربي».

الدعم الأمريكي للمعارضة في مقابل الدعم الروسي لنظام الأسد في سوريا:

تعتبر الحرب الأهلية في سوريا حربَ مصالح بين قوتين عظيمتين، تحاول كل منهما بشتى الطرق إخضاع المنطقة بأسرها لهيمنتها. كانت الحرب في سوريا حربًا بالوكالة بين التحالف السني – الأمريكي (السعودية في مركزه) والتحالف الروسي الشيعي (إيران في مركزه)، ووجدت الولايات المتحدة نفسها لا تحارب سوريا وإيران وروسيا فحسب، بل المسيحيين الباقين في حلب والعائدين إليها كذلك[٥٩].

في خضم الصراع الجيوسياسي بين روسيا والولايات المتحدة وحلفائهما، لم يحظَ دور الدين فيه بالانتباه، سواء دوره في تشكيل السياسة الداخلية الروسية، أو باعتباره وسيلة لفهم توجهات الرئيس بوتين على الساحة الدولية[٦٠]. فدائمًا ما غُفل عن دور الدين أثناء دراسة فنون الحكم، رغم أن النهضة التي يشهدها

57 Kreutz, 2010.

58 Petrenko, 2012.

59 Frankovich, 2017.

٦٠ في المقابل حظي الإسلام والخلافات الدينية والمذهبية في سوريا باهتمام كبير من الباحثين (المترجم).

الدين اليوم باتت واضحة، وكذلك دوره البارز في مختلف المجالات، بما في ذلك دعم الدولة الروسية ومكانتها الحالية في السياسة العالمية[٦١].

وليس للدين تأثير كبير في مواقف روسيا المحلية والدولية، حسبما يرى «كوير»، لكن يمكن ملاحظة بعض الجوانب الدينية في السياسات الروسية، رغم هذا الدور المحدود للمؤسسات الدينية. فعلى المستوى المحلي؛ يحظى الرئيس بوتين بدعم حليف قوي يضم أكثر من ١٥٠ مليون تابع حول العالم، وقد أعلن هذا الحليف – على لسان «فيسفولود تشابلن»، رئيس القسم السينودوسي للتفاعل بين الكنيسة والمجتمع، في مؤتمر صحفي عقد في موسكو عام ٢٠١٥ – عن دعمه الكامل للتدخل الروسي في سوريا[٦٢]. كذلك فإن روسيا تتمتع، حتى اليوم، بمكانة خاصة بين المسيحيين الأرثوذوكس في الشرق الأوسط؛ كونها آخر المعاقل العظمى للأرثوذوكسية الشرقية[٦٣]، وهو ما يصب في مصلحة روسيا بالطبع، خصوصًا في صراعها الجيوسياسي مع الغرب في الشرق الأوسط.

وتعتقد روسيا أن الولايات المتحدة قد تدعم خفيةً الجهاديين في روسيا، حسب ما قال وزير الخارجية الروسي سيرجي لافروف، في مقابلة حصرية مع البي بي سي، وأضاف أن الولايات المتحدة أخلفت وعدها بالمساعدة في فصل جبهة فتح الشام (جبهة النصرة سابقًا) وغيرها من الجماعات المتطرفة عن المعارضة المعتدلة[٦٤]. وعندما سُئل عن فقدان الأمريكيين السيطرة على أنفسهم وعلى الأحداث في سوريا، أجاب بأنهم لا يُظهرون أي دليل على عكس ذلك، فإما أن تكون جبهة النصرة هي من تحركهم، أو أنهم هم من يدعمون المنظمات الإرهابية. وأشار إلى أنه "بالعودة إلى التاريخ، نجد أن ولادة تنظيم القاعدة كانت بسبب دعم الولايات المتحدة للمجاهدين في أفغانستان، أثناء إدارة رونالد ريجان"[٦٥].

وقد أدى سعي روسيا لقيادة مكافحة الإرهاب إلى إغراقها في شئون الشرق الأوسط، تحت غطاء إستراتيجية مكافحة الإرهاب. وهنا ظهرت حاجة ملحّة لدعم الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية، لتكون القوة الدينية المقابلة لتنظيم الدولة؛ لأن نسبة كبيرة من الملتحقين بالتنظيم هي من الجنسيات الروسية ودول الاتحاد السوفيتي السابق[٦٦]، وأن هؤلاء المجندين الجدد من القوقاز يمثلون خطرًا حقيقيًّا على الأمن القومي الروسي ومصالحها القومية أين وُجدوا، فلروسيا ماضٍ مع التمرد الإسلامي من خلال حربين في الشيشان. لكن يمكننا القول إن تهديد تنظيم الدولة لوحدة روسيا السياسية والاجتماعية أخطر بكثير من تهديد

61 Coyer, 2015.

62 Al Watan, 2015.

63 Fuller, 2008.

64 Lavrov, 2016.

65 Ibid., 2016.

يتضح الغرض من هذه الفقرة في الفقرة بعد القادمة (المترجم).

66 Spencer, 2017.

المتمردين الشيشان.

وقد قرر فلاديمير بوتين، في إطار حرب التحالفات (التنافس بينهم)، أن يعارض سياسة الفوضى الخلاقة التي تنتهجها أمريكا في الشرق الأوسط، وأن يكون واجب روسيا تنظيف المنطقة من الفوضى التي خلقتها الولايات المتحدة، حسب تعبيره. في هذا الإطار كذلك، يبدو اضطلاع الجيش الروسي (القوة الخشنة) في مواجهة الإرهاب في سوريا أحد الأشكال الجيوسياسية الأوراسية. ومن ثم تقع سوريا في قلب المعركة بين ممثلي النظام العالمي أحادي القطب (الولايات المتحدة)، والنظام متعدد الأقطاب (روسيا)، فهي بحسب «ألكسندر دوجين» خط الدفاع الأمامي لروسيا[٦٧]. وقد أكد بوتين، في رسالته أثناء زيارة الأخيرة إلى قاعدة "حميميم" العسكرية الروسية في محافظة اللاذقية السورية في ١١ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠١٧، أن العملية العسكرية قد انتهت بنجاح، وأن الوقت حان للانتقال إلى عملية سياسية بتسويات سلمية. لكن لا تزال قاعدتا "حميميم" و"طرطوس" أساسيتين لروسيا؛ حتى توسع نفوذها في الشرق الأوسط، كذلك اشتملت رسالة بوتين إشارة إلى الغرب، مفادها أن روسيا حققت أهدافها الرئيسة بالفعل، كما أنها، على ما يبدو، رسالة تأكيد من روسيا على ولائها لحلفائها ما بقوا على ولائهم ولم ينكصوا، وأنها لا تتخلى عنهم، خصوصًا في الأوقات الحرجة مثلما تفعل الولايات المتحدة، أو مثلما أكد سيرجي لافروف أنه لولا تدخل روسيا في سوريا لسقطت دمشق[٦٨].

طريقة روسيا الواقعية في محاربة الإرهاب:

ليس لروسيا ما تخسره من جرّاء انتقادات المجتمع الدولي المتعددة لها؛ فهي معتادة على تحديه. ويبدو أن روسيا تجاهلت الرأي العام الدولي عندما قررت الانخراط في الشرق الأوسط، كما نلاحظ في حالة سوريا عندما بدأت حملتها العسكرية البرية والجوية لمواجهة الجماعات الإرهابية، بمباركة من الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية. عندها قابل بوتين نظيره السوري بشار الأسد في سوشي في ٢١ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١٧، وقال له إن سوريا والسوريين قد عانوا ما لا يُحتمل، وأكد له حتمية هزيمة الجماعات الإرهابية، وأن روسيا ستضع في المستقبل القريب حدًّا نهائيًّا للإرهاب[٦٩]. وبشكل عام، ليست هذه الحرب الأولى التي تخوضها روسيا، فقبلها خاضت حروبًا في أوكرانيا وجورجيا. كما أن روسيا لا تريد أن تخاطر بسمعتها الدولية في حرب بالوكالة، لا تعني بالضرورة وجود مصالح لأطرافها في المنطقة من الناحية الجيوسياسية، بقدر ما هي في الواقع ساحة لاستعراض عضلات كل طرف، وهو ما يحدث حاليًّا في سوريا،

٦٧ راجع: مقابلة مع ألكسندر دوجين في ٩ ديسمبر ٢٠١٦ مع German Center (٢٠١٦) بعنوان «لماذا نحارب في سوريا»:

"Why we fight in Syria", ZUERST.

68 *Reuters.*, "Lavrov Says: Damascus Weeks from Falling When Russia Intervened", 2017.

69 Inessa, 2017.

وحدث سابقًا في أفغانستان في الثمانينيات من القرن العشرين، حسبما يورد تقرير «كاسبين»[٧٠].

لقد تبنت روسيا طريقة واقعية للتعامل مع مثل هذه القضايا؛ لتحافظ على جميع مصالحها في الوقت نفسه. ففي حالة سوريا، لا يهتم المسئولون الروس كثيرًا بمستقبل نظام الأسد، ولا بحماية المسيحيين كما تزعم الكنيسة الأرثوذوكسية، ولا حتى بالأعداد المهولة للقتلى من المدنيين العزل. في واقع الأمر، ما يهم روسيا في المقام الأول الحفاظ على محيطها الجيوسياسي، وخصوصًا بقاء قواتها قريبة من سواحل المياه الدافئة (البحر المتوسط)[٧١]. ثم هي تريد إبعاد الغرب وخصوصًا الولايات المتحدة عن مجال نفوذها في الشرق الأوسط، بتوريط الولايات المتحدة في صراعات في شتى بقاع الشرق الأوسط؛ ما يعود على روسيا بالمزيد من القدرة على المناورة؛ لتأكيد نفوذها في مناطق الاتحاد السوفيتي السابق. إن موسكو تريد إظهار صورتها باعتبارها قوة عظمى صاعدة، في حين تتراجع قوة الولايات المتحدة. ولهذا تعتبِر سوريا أساسًا لمحيطها الجيوسياسي في الشرق الأوسط، لكن تسارُع وتيرة الأحداث المعقدة وتشابكِها في المنطقة، أظهرا كيف يمكن أن يكون لهذا الأساس الجيوسياسي تبعات خطيرة.

كان واضحًا الدور الذي قامت به الكنيسة الأرثوذوكسية لدعم الحملة العسكرية الروسية، إلى حد مباركة الجيش الروسي بإطلاق اسم «المعركة المقدسة» على الحملة الجوية، وظهور صور بعض أساقفة الكنيسة في وسائل الإعلام. قبلها كان بوتين قد استغل تاريخ الكنيسة ليبرر ضمه لشبه جزيرة القرم، وحينها شبه بوتين المكان الذي تحول فيه الأمير فلاديمير إلى المسيحية بالقدس الروسية[٧٢]، مستعملًا سردية دينية؛ ليبرر ضم روسيا لشبه جزيرة القرم، مثلما فعل في سوريا، مع إشارة رئيس لجنة الشئون الخارجية في الكنيسة «فيسفولود تشابلن» إلى أن عيون الكنيسة معلقة ناحية الجنوب، ناحية الشرق الأوسط، وتأكيد الكنيسة منذ اندلاع الحرب السورية على الحاجة إلى حماية الأقليات المسيحية، وتقديم المعونة لبقية السكان[٧٣].

ويحظى فلاديمير بوتين بعلاقة وثيقة مع الكنيسة الأرثوذوكسية، وعلى رأسها البطريرك كيريل، الذي وصف رئاسة بوتين بـ «المعجزة من الرب»[٧٤]. وبحسب «ميلتون»، فإن الكثيرين يعتقدون بأن جهاز الأمن الفيدرالي الروسي[٧٥]، الذي حل محل جهاز أمن الدولة السوفيتي، له نفوذ كبير على الكنيسة. وتسمح هذه

70 Caspian Report, 2013.

71 Delman, 2015.

72 Tharoor, 2015.

73 ibid,

74 Melton, 2016.

٧٥ جهاز الأمن الفيدرالي الروسي: هو المؤسسة الأمنية المسئولة بشكل أساسي عن الأمن الداخلي للدولة الروسية، ومكافحة التجسس، ومحاربة الجريمة المنظمة والإرهاب.

العلاقة لبوتين أن يستخدم الكنيسة لأغراض القوة الناعمة؛ حتى يحسّن صورة روسيا الخارجية[٧٦]. فلا يُعتبر بوتين اليوم مجرد شخصية سياسية قوية، ولكنه – مثل القيصر – شخصية دينية، وهو يصف نفسه في خطاباته بأنه مدافع عن القيم المسيحية التي هجرها الغرب المنحط[٧٧]!

وقد أدى ادعاء روسيا حمايتها الأقليات المسيحية في سوريا، إلى إعلان البطريرك «كيريل» أن هذا هو سبب تدخل روسيا في الصراع السوري، إلى جانب حماية بعض القضايا، مثل: حماية الأمن القومي، من أي تهديد إرهابي، وذلك خلال لقائه بمناسبة عيد الميلاد على قناة روسيا الأولى[٧٨]. كذلك دفعت الحرب على تنظيم الدولة البطريركَ إلى الإعلان، في مقابلة رسمية، عن شرعية محاربة التنظيم الديني المسلح المدعوم من الغرب، حسبما يراه، واعتبره كذلك رد فعل على علمنة المجتمع عمومًا والمجتمع الغربي خصوصًا[٧٩]. وعندما أعلنت روسيا بداية حملتها العسكرية (القوة الخشنة)، أعلن بابا الكنيسة في بيان رسمي دعمه قرار بلاده، إذ قال: "لقد اتخذت الفيدرالية الروسية قرارًا مسئولًا، عندما قررت استخدام القوات المسلحة للدفاع عن السوريين ضد المآسي، التي تسبب فيها الإرهابيون، ونحن نؤمن بأن هذا القرار سيعيد السلام والعدل إلى هذه الأرض العريقة"[٨٠].

وعندما يوافق بوتين على أن التدخل الروسي في سوريا كان «حربًا مقدسة»، فهو يسعى في الوقت نفسه لئلًا تكون هذه الحرب أجندةً معادية للإسلام؛ ولذلك كان المنطقي استخدام مصطلح «الحرب المباركة» بدلًا من «الحرب المقدسة»، فالأولى تحمل معاني صدام الحضارات والحروب الدينية، في حين «الحرب المباركة» تعني عادة الحرب العادلة فحسب. فحتى المسيحيون في سوريا لا يحب الكثير منهم إطلاق كلمة «الحرب المقدسة» على حربهم مع داعش؛ لأنهم يدركون ما تعنيه الكلمة حقًّا. فضلًا عن ذلك، لا يريد بوتين أن يكون معارضًا صارخًا للإسلام، إذ هو دين أغلبية بلدان الشرق الأوسط ودين أقرب حلفاء روسيا: إيران وسوريا. كما أن للرئيس الروسي أقليته المسلمة التي تبلغ ٢٥ مليون نسمة، وهو بالطبع لا يريد خلق أي قلاقل داخلية هو في غنى عنها[٨١]، ولا يريد أن تكون الأقلية الروسية المسلمة عقبة له في طريق استعادة روسيا مكانتها في المنطقة.

وتعتبر العلاقة بين السياسة الخارجية الروسية والكنيسة الأرثوذوكسية الروسية من منظور علماني غربي علاقةً تعود بالنفع على الطرفين، وفي الوقت نفسه قد تكون نذيرَ خطر؛ فلا بد أن الكرملين قد حاد بالكنيسة عن مسارها لضمان مزيد من القوة السياسية. ومن المؤكد أن بوتين ليس مخلصًا في معتقداته الأرثوذوكسية

76 Melton, 2016.

77 Wargas, 2015.

78 VoicesfromRussia, 2018.

79 Spencer, 2017.

80 SerbianOrthodox Church, 2015.

81 Wargas, 2015.

المدعاة. ويظن «ميلتون»[٨٢] أن الجماهير الروسية ستعتنق العلمانية الغربية بمجرد انتهاء سلطة بوتين، في حين كشف «أرشبريست شابلن» عن نظرة الكنيسة والكرملين إلى تصاعد مظاهر الالتزام الديني المحافظ في الحياة العامة الروسية على أنه حائط لصد النفوذ العلماني الغربي المفسد، وقوة دافعة لتدخل روسيا في الحرب الأهلية السورية. وكما ذكر «فيسفولود تشابلن» فإن «الحرب على الإرهاب هي حرب مقدسة، واليوم ربما تكون بلادنا أكثر بلاد العالم نشاطًا في محاربته»[٨٣].

وعندما لا تهتم الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية إلا بسلامة المسيحيين على حساب بقية الجماعات الدينية، فإنها تُظهر بذلك سياسة الكيل بمكيالين، وتناقض تعاليمها القائلة بأن "ينعم الإنسان بظل الكرامة التي منحها الرب له، ما دام يعيش حياة أخلاقية"[٨٤]. وإذا أخذنا في الاعتبار أن المسلمين يمثلون ٩٠٪ من سكان سوريا، في حين لا يمثل المسيحيون سوى ١٠٪ من السكان، وجدنا هذا التناقض. حتى ولو قال البطريرك «كيريل» إن قرار سوريا المسئول بتدخل القوات المسلحة كان لحماية السوريين من الجماعات الإرهابية، فربما لو لم يكن في سوريا مسيحيون، لما وجدت الكنيسة الفرصة لدعم التدخل، الذي يمنحها بعض الامتيازات التي تبحث عنها، سواء سنحت الفرصة أم لا. أما الواضح للعيان، فهو أن الكنيسة تنتهج طريقة السياسة الخارجية الروسية الواقعية نفسها في دعم الجيش الروسي، بل ومباركته في حربه في سوريا، تحت ذريعة محاربة جميع الجماعات الإرهابية والمتطرفة، التي قد تشكل تهديدًا للجميع، وبالأخص الأمن القومي الروسي. لكن حماسة الكنيسة لدعم التدخل الروسي في سوريا تسعى إلى تحقيق عدة أهداف يمكن تلخيصها في:

١. القرب من القيادات الروسية في علاقة المنفعة المتبادلة بينهم.

٢. التأكيد على وجودها السياسي والروحي.

٣. المزيد من الثقة بالنفس، بوصفها ممثلًا روحيًّا راسخًا للكنائس الأرثوذوكسية حول العالم.

٤. أن تكون سبّاقة من بين الكنائس الأرثوذوكسية، فيما يعرف بالدبلوماسية الدينية، بأن تظهر بشكل ما أنها أبعد عن التطرف بقدر ما هي تواجهه.

٥. حتى تقطع الطريق على أي منافسة خطرة من أي من القوى السياسية الدينية.

وفي الواقع الحال، يدفع الحديث عن الجغرافيا السياسية للدين العديدَ إلى الاعتقاد بأن رجال الدين والأساقفة والكهنة ليسوا إلا سياسيين ميكافيلليين تحركهم أجندات المصالح.

82 Melton, 2016.

83 Bennetts, 2015.

84 Russian Orthodox Church, nd.

فإذا كانت حماية الأقليات المسيحية في سوريا هي أحد الأهداف الرئيسة للتدخل العسكري الروسي، إذًا فلماذا لم تتدخل الولايات المتحدة لحماية هذه الأقليات من أي تهديد أو هجوم إرهابي أو متطرف؟[٨٥] أم علينا أن نظن أن الولايات المتحدة والغرب لا يعبأون بانتماءات هذه الجماعات الدينية وغالبيتهم من المسيحيين، الذين يشاركون أكثرية المواطنين الغربيين ديانتهم؟ في الحقيقة لا يبدو بطريرك موسكو إلا عميلًا للكرملين أو ألعوبة في يده، حتى ولو كان المسئولون الروس يقابلون قادة الكنيسة بشكل دوري[٨٦].

وأيضًا توافق الكنيسة الروسية على أن تكون أداة دبلوماسية في يد الدولة في المواقف الدولية، التي يمكن أن يعتبر التدخل الروسي فيها غزوًا أو احتلالًا[٨٧]. فإذا وضعنا كل هذه السياسات الواقعية القديمة في الاعتبار، فسيكون من السهل القول بأن ما يشغل بوتين ليس محنة المسيحيين، ولكن همه الأكبر هو الحفاظ على هوية روسيا وأمنها القومي، واستعادة مكانتها في السياسة العالمية باعتبارها قوة عظمى.

على ما يبدو، يحتاج الكرملين كما احتاج «جوزيف ستالين» من قبل إلى جميع المكونات الروسية، من المؤسسات إلى الأفراد، وكل ما يستطيعون بذله؛ لضمان الأمن القومي داخليًّا، واستعادة العالم الروسي[٨٨] خارجيًّا. ومن الواضح الآن أن السياسة الخارجية الروسية قد استعملت الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية باعتبارها أداة سياسية للعديد من الأسباب هي:

١. الحصول على دعم وافر لانخراط سياستها الخارجية في السياسة الدولية، وتطلعاتها لأن تكون قوة مستقلة عن الغرب، ولأن روسيا بحاجة إلى أداة تكون بمثابة العامل الثقافي الذي يوحد هويتها.

٢. نيل شرعية في عملياتها السياسية التي يحسب لها حساب، من قبيل محاربة الإرهاب باعتباره ظاهرة عالمية تهدد الأمن الجماعي الدولي.

٣. استمالة الروس وحثهم على الرضا عن سياسات قادة حكومتهم الداخلية والخارجية، خصوصًا أتباع الكنيسة.

٤. الانخراط بعمق في المناطق والبلاد، التي تعتبر امتدادًا لمجال نفوذ روسيا في محيطها الجيوسياسي الجديد، حيث تطمح روسيا إلى الهيمنة.

---

٨٥ ساعدت الولايات المتحدة قوات المعارضة ضد النظام السوري، الذي شكل تهديدًا واقعيًّا وغير قانوني على حياة السوريين. وكان من المتوقع أن يكون سقوط النظام مسألة وقت ليس إلا، لكن التدخل الروسي أنقذه.

86 Wargas, 2015.

87 Tserpitskaya, 2005.

٨٨ يُقصد به نفوذها ومكانتها ومحيطها الجيوإستراتيجي، مثلما كان الحال في العصر الذهبي للاتحاد السوفيتي والملكية القيصرية، إذ كان لروسيا عالم خاص بها (المترجم).

الخلاصة:

إن روسيا تولي اهتمامًا بسياسات الدول المسلمة أكثر من أي وقت مضى، خصوصًا في الشرق الأوسط، الذي كان خلال مرحلة الحرب الباردة ساحةً لصراع المصالح بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية. واليوم تستمر هذه المعركة نتيجة الأهمية الجيوسياسية والجيوإستراتيجية التي لا جدال فيها للمنطقة؛ وهو ما جعلها هدفًا دائمًا للقوى العظمى. وفي مرحلة ما بعد الحرب الباردة، تسعى روسيا لأن تحل محل الاتحاد السوفيتي، وأن تستعيد مكانته في العالم باعتبارها قوة عظمى في النظام العالمي، عن طريق منافسة الولايات المتحدة على الهيمنة على المنطقة. وفي سبيل ذلك تبنّى القادة الروس مجموعة من السياسات والإستراتيجيات؛ لتذليل عقبات سياسية واقتصادية واجتماعية، تتعلق بشكل أساسي بمسألتي الأمن القومي ومجال النفوذ. وكانت إحدى هذه الإستراتيجيات: جبهة محاربة الإرهاب، حيث تنضم روسيا إلى الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية في تحالف «غير مقدس»، تحت غطاء ما يسمى بالجغرافيا السياسية للدين، وتمضي قُدمًا في هذه الإستراتيجية.

باختصار؛ يوظف القادة الروس الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية بشكل سياسي، بوصفها قوة ناعمة، تدعم سياسة روسيا الخارجية في سبيل تحقيق مصالحها القومية، والحفاظ على أمنها القومي، وهو ما يتجلى في مباركة الكنيسة للتدخل العسكري الروسي في سوريا (القوة الخشنة) منذ عام ٢٠١٥. وحتى مع ازدياد أعداد الضحايا من المدنيين من جراء العمليات العسكرية، ومناقضة الكنيسة بهذه المباركة مبادئها المسيحية. وفي حقيقة الأمر، يرغب كل من الكرملين والكنيسة في عودة روسيا عظيمة مجددًا على الساحة الجيوسياسية. وكما يقول البطريرك «كيريل»، فإنهم يسعون لإعادة ماضي روسيا الحميمي، وإحياء حقبة كانت تتمتع فيها هوية روسيا بالأمان.

وقد طبّع بوتين طابعه السياسي بالقومية الدينية المتمركزة على الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية، وأصبحت العامل الرئيس في انتشار دعاية له بوصفه صديقًا للبطريركية. وقد أنشأ هذا التحالف ليخدم بشكل عملي إعلاء قيمة الهوية الوطنية الروسية، وتدعيمها؛ لتكون روسيا قوية متماسكة على المستوى الداخلي، وأقوى على المستوى الخارجي؛ حتى تستعيد مكانتها الدولية. وما فعله بوتين في سوريا منطقي من الناحية الجيوإستراتيجية؛ إذ رأى في الجماعات المتطرفة التي تقاتل نظام الأسد تهديدًا لوجود روسيا السياسي والاقتصادي والعسكري في سوريا. وكذلك على مستوى الأمن القومي الروسي، فلروسيا تجربة صعبة في مواجهة الجماعات المقاتلة في قلب روسيا، وبالتحديد في منطقة القوقاز. وكما يرى «مارتن مكولي»[٨٩]، فإن بوتين تدخل عسكريًّا في سوريا؛ لمّا رأى في تنظيم الدولة خطرًا وجوديًّا على روسيا، وإنه إذا انتصر التنظيم في سوريا، فسينتقل إلى القوقاز، وهو ما سيمثل زعزعة كبيرة لأمن روسيا القومي.

ولا تكمن المشكلة الأساسية مع الكنيسة الأرثوذوكسية الروسية فيما إذا كان الرب يمنح الحكومات

89 Al - Jazeera, 2016.

حق حماية مصالحها القومية عسكريًّا، ولكن في الاستنتاج السياسي بأن أفضل طريقة لضمان السلام في سوريا هي السماح لمجرم حرب – بشار الأسد – لا يستطيع حكم سوريا بمفرده بأن يبقى في السلطة. وكما ذكر «ميلتون»[٩٠]، فلولا تدخل روسيا لسقط نظام الأسد منذ الأيام الأولى للانتفاضة السورية. وكما يقال فإن مسئولي الكرملين لا يعنيهم بقاء نظام الأسد أو ذهابه، ولكن همهم الأساسي حماية الأمن القومي الروسي، والحفاظ على محيط روسيا الجيوسياسي، وخصوصًا وجودها العسكري.

وأخيرًا، تجدر الإشارة إلى أن هذه الدراسة حددته بعض القيود؛ فهو قد تركز على منطقة بعينها هي سوريا والشرق الأوسط؛ من أجل تحليل العلاقة بين الدين والدولة الروسية. وعليه؛ فإن ما استخلصته الدراسة مرتبط بهذه المنطقة بالتحديد، وكذلك بالمسيحية التي هي دين الأكثرية في روسيا، والتي أشير إليها بـ «الدين» بإطلاق. وربما تنتهج الدولة سلوكًا مغايرًا تجاه ديانات الأقليات؛ مثل: الإسلام، واليهودية، والبوذية. وعليه؛ فإن دراسة أفضل للموضوع في المستقبل عليها أن تأخذ في الاعتبار دور الأديان الأخرى في صناعة سياسة الفيدرالية الروسية.

90 Melton, 2016.

المصادر:

1. *Al - Jazeera, A.,* "Transcript: Natalia Narochnitskaya on Putin's Russia", 2016, https://bit.ly/36Hk5UP.

2. *Al - Watan, D.*. "Russian Warplanes over Syria: A Religiously Sanctioned Affair", [Press Release], 2015, https://bit.ly/2LlThSK.

3. M.Bennetts., "The Kremlin's Holy Warrior", *Foreign Policy*. 2015, https://bit.ly/2Munekk.

4. N. Bentwich., "The Religious Foundations of Internationalism: A Study in International Relations through the Ages. Abingdon - on - Thames: Routledge", 2015, https://bit.ly/2O0JOBc.

5. R. C. Blitt., "Russia's Orthodox Foreign Policy: The Growing Influence of the Russian Orthodox Church in Shaping Russia's Policies Abroad", *University of Pennsylvania Journal of International Law*, 2011, 33, 363 : 460, https://bit.ly/2MBK5ua.

6. F. C. Bryan., "Religion and Russia. Baptist Quarterly", 1942, 11, 106 : 113, https://bit.ly/3txi9Ii.

7. *Caspian Report*., "Why Does Russia Support Syria's al - Assad?", 2013, https://bit.ly/39SegWK.

8. A.Cheskin., "Russian Soft Power in Ukraine: A Structural Perspective", *Communist and Post - Communist Studies*. 2017, 50, 277 : 287, https://bit.ly/3cRlU5s.

9. P. Coyer., "(Un)Holy Alliance: Vladimir Putin, the Russian Orthodox Church, and Russian Exceptionalism", *Farbes*. 2015, https://bit.ly/2O8ZBOC.

10. A. Curanovic., *The Religious Factor in Russia 's Foreign Policy: Keeping God on Our Side*. Abingdon - on - Thames: Taylor & Francis, 2012, https://bit.ly/3jmTvW9.

11. R. J. Dalton., (2013). *Citizen Politics: Public Opinion and Political Parties in Advanced Industrial Democracies*. Washington DC: Cq Press. Delman, E. (2015). The Link between Putin's Military Campaigns in Syria and Ukraine, https://bit.ly/2MBLTTY.

12. A. Dugin., *The Foundations of Geopolitics: The Geopolitical Future of Russia* (Hatim, E., Trans., Vol. 1). 2004, Beirut: Dar al - Kitab al - Jadid.

13. N. Frankovich., "Deposing Assad Could Hurt Syria's Christians", *National Review*. 2017, https://bit.ly/3pMHgEV.

14. G. E. Fuller., "A World without Islam", *Foreign Policy*. 2008, 164, 46 : 53.

15. German Center. Alexandr Dugin., "Why We Fight in Syria". *ZUERST*. 2016.

16. M. Graziano., "What Is the Geopolitics of Religions?", *reset dialogues*. 2018, https://bit.

ly/36JQRF3.

17. A. Huemmer., "The Religious Factor in Russia's Foreign Policy", *Abingdon - on - Thames: Taylor & Francis*. 2014, https://bit.ly/39OOvGK.

18. *Inessa, S.* "Where's NATO? Putin, Assad Win Syrian War", [Video File]. 2017, https://bit.ly/2MzX0g0.

19. *Interfax*. "United Russia Considers Orthodoxy as a Moral Basis for Modernization", 2010, https://bit.ly/3cHXuvp.

20. M. Klimentyev., "Putin's Proposal to Create United front against Terrorism Gains More Supporters [Press Release], sputnik international", 2017, https://bit.ly/3pR1wFy.

21. A.Kreutz., "Syria: Russia's Best Asset in the Middle East", *Russie*. 2010, Nei. Visions, 55.

22. S. Kroll., "Humanitarian Intervention: Religion as a Reason for Intervention", *Religion and the Public Sphere*. 2016.

23. V. Laine., & I. Saarelainen., "Spirituality as a Political Instrument: The Church, the Kremlin, and the Creation of the", "Russian World", *Academia*. 2017, https://bit.ly/3cK7jZJ.

24. *Polygraph.info.,* "Lavrov Says Damascus Weeks from Falling When Russia Intervened", Press Release, 2017, https://bit.ly/2YQgLm2.

25. S. Lavrov: "Russia's Sergei Lavrov: BBC Interview in Full", BBC Interview: *BBC World News TV*. 2016, https://bbc.in/3aA2XBD.

26. M. Melton., "Russian Orthodox Church's Flawed Syria Policy", *Providence*. 2016, https://bit.ly/36J6uMS.

27. N. Narochnitskaya., "Putin's Russia", *Al - Jazeera*. 2016, https://bit.ly/39OTzuH.

28. D. S. Pavlovich., *Russian Orthodox Church and State Institutes of the Russian Federation: Mechanisms of Political Interaction*. PhD, Moscow: Moscow State Pedagogical University, 2017.

29. D. P. Payne., "Spiritual Security, the Russian Orthodox Church, and the Russian Foreign Ministry: Collaboration or Cooptation? ", *Journal of Church and State*, 2010, 52, 712 : 727. https://bit.ly/39QArwm.

30. G. Petrenko, (2012). "Influence of the Russian Orthodox Church on Russia 's Foreign Policy".

31. R. Rose, & D. Urwin., "Social Cohesion, Political Parties and Strains in Regimes", *Comparative Political Studies*. 1969, 2, 7 : 67, https://bit.ly/3ro3TzL.

32. *Russian Orthodox Church* (nd)., "The Russian Orthodox Church's Basic Teaching on Human Dignity, Freedom and Rights", Official Document, (In Russian). https://bit.ly/2YN8ejV.

33. P. Rutland, & A. Kazantsev., "The Limits of Russia's "Soft Power". *Journal of Political*

Power, 2016, 9, 395 : 413. https://bit.ly/3pMPU6l.

34. SerbianOrthodoxChurch., "Russian Military Participation in Syria Should Bring Peace to Region—Patriarch Kirill", 2015, https://bit.ly/3pMPZHb.

35. G. J. Simons., *Ideology, Image - Making and the Media in Putin's Russia*. A Thesis Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of PhD in Russian, Canterbury: University of Canterbury, 2004, https://bit.ly/36JZWh7.

36. J. Spencer., "With God on Our Side: How Religion Will Shape Russia's Political Destiny", *Nations states*. 2017, https://bit.ly/3rqaxWp.

37. I. Tharoor., "The Christian Zeal behind Russia's War in Syria", *Washington post*. 2015, https://wapo.st/3pR9Dlu.

38. D. Trenin., "Russia's Policy in the Middle East: Prospects for Consensus and Conflict with the United States", *The Century Foundation*. 2010.

39. O. L Tserpitskaya., (2005). "Russian Orthodox Church at the Russian State: Cooperation in Terms of Foreign Policy", (In Russian), *Soctheol*. 2005, https://bit.ly/3rlYgCn.

40. *VoicesfromRussia*., "Patriarch Kirill: Russia Helped to Protect Christians in Syria", 2018, https://bit.ly/3oSAah1.

41. R. Wargas., "Vladimir Putin's Holy War", [Press Release]. *catholicherald*. 2015,

42. https://bit.ly/3ayQkXK.

43. S. White, & I. McAllister., "Orthodoxy and Political Behavior in Post Communist Russia", *Review of Religious Research*. 2000, 41, 359 : 372, https://bit.ly/3cKpDlm.

44. Y. Zarakhovich., "Putin's Reunited Russian Church", *Time.com*. 17 May 2017.

صادر عام ٢٠٢٢ عن مركز أركان للدراسات والأبحاث والنشر
الآراء الواردة بالدراسة تعبر عن وجهة نظر كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المركز، ويمنع نقل هذه الدراسة أو نسخها أو ترجمتها أو أي جزء منها إلا بإذن مسبق من المركز
info@arkan - srp.com

أركـان للدراسات والأبحاث والنشر

Arkan for Studies Research and Publishing